

الرسالة العاشرة

قضية النظام مرة أخرى

obeikandl.com

obeikandi.com

لقد سبق لى أن أشرت إلى ضرورة تكوين نظام عقلى لدى المتعلمين أنفسهم ، بالتعاون مع المعلم ؛ إذ إنه دون هذا النظام لن يستطيع الفرد أن يخلق عملاً فكرياً ، أو أن يقرأ بوضوح ، أو أن يكتب بعناية ، أو أن يلاحظ ويحلل الحقائق أو أن يقيم علاقات فيما بينها . ومن المأمول ألا يفتقد كل هذا حب الجرأة والمغامرة فى الخلق أو إلى تحاصل أى منهما الإحساس بحدوده ؛ حتى لا تصبح المغامرة أو الجرأة ضرباً من ضروب المسؤولية غير المنضبطة .

ويجب علينا أن نتجنب فكرة وجود أنواع مختلفة من عملية النظام ، كأن يقال أن هناك نظاماً عقلياً وآخر بدنياً ، يتعامل مع التمارين الرياضية ، أو أن هناك نظاماً أخلاقياً دينياً متشدداً .. وهكذا . وقد يكون هذا التصنيف راجعاً إلى أن ثمة أهدافاً معينة تتطلب طرقاً نظامية نوعية معينة . ومع ذلك يبقى معيار النظام الأساسى فى كونه نظاماً صحيحاً وفى أن يكون فهمه سليماً . هذا فضلاً عن أن يظل أسلوب أدائه ومعايشته ديمقراطياً ، وموضوعات إبداعه نافعة . وعلى هذا النظام الأساسى أن يتضمن دائماً الخبرة بمواقع الحدود ، وإدراك التناقض بين السلطة والحرية ، كما أنه لا يتجاهل أبداً الأساس الأخلاقى .

وبهذا المعنى لا أستطيع أن أفهم أن سلطة ما تفرض نظاماً عبثياً ؛ حتى يكون لها حرية ممارسة الطاعة المفروضة والولاء المزعوم . ولا يوجد ما اعتبره نظاماً يشل الحركة ، ويكون متجسداً فى صورة سلطة بعيدة غير مبالية ، تخنق الحرية أو متجسداً فى صورة أخرى لسلطة ضعيفة ، تنأى بنفسها بعيداً عن ممارسة مسؤولياتها باسم احترام الحرية .

كذلك لا يوجد أيضاً نظام يتم فيه تجميد الحرية ؛ حيث تفرض عليها السلطة رغبتها وإرادتها وتفضيلاتها على أنها أحسن ما يمكن عمله من أجل الحرية .. فهو بذلك نظام يعمل على إخضاع الحرية الخائفة أو إعاقه أى محاولة لثورة مخلصه .

وعلى النقيض من ذلك لا يوجد النظام إلا في حالة التوتر القائمة بين الإكراه الإجبارى للسلطة وسبل البحث المكثف عن الحرية للجهود التي تلتزم بها . ولهذا السبب فإن السلطة التي تنمو بشكل كبير في طغيانها أو تلك التي تمارس التسبب وإهدار عملية الضبط المطلوبة منها تفقد إحساسها بالحركة ، وتصبح في حالة ضياع تؤدي إلى تهديد الحرية ذاتها . كما أن هذه السلطة في حالة نموها المتضخم والزائد ، تغدو حركتها ذات قوة شديدة إلى الدرجة التي تؤدي إلى شلل في حركة الحرية أو إلى تشوهها . فالحرية التي يتم تجميدها بواسطة سلطة غاشمة عنيفة والتي تطرأ نتيجة لعدم الالتزام بأهميتها ، تضع وسط زيف الحركات غير الأصلية .

ومن ضروريات وجود النظام ألا يقتصر مدى التمتع بالحرية الحق في أن تقول "لا" لما يعرض لك من آراء على أنها الصدق والحق كله ، ولكن في الوقت الذي عليك أن تتضمن حق ممارسة هذا الحق ، فإن على الحرية أن تتعلم كيف تعزز قدرتها على الإنكار ، لا مجرد التعبير عن الإنكار ، بل باعتباره يتضمن معياراً للثبوت والبرهان .

وفي سياق هذه الحركة في التعامل مع الحرية ذهاباً وإياباً ، سوف ينتهي الأمر بها إلى أن تستبين قيم السلطة بداخلها ، وتصبح بمعنى الكلمة ، حرية لها سلطة حين تصل إلى موقع السلطة وتظل تحترم الحرية .

إن مسئوليتنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية والجمالية والتعليمية والعلمية هي على جانب بالغ الأهمية ، على اعتبار أننا كائنات اجتماعية وتاريخية ، وكحاملة للذات الفاعلة التي تلعب دوراً هاماً في التاريخ ، وفي حركة التعارض الجدلي بين السلطة والحرية . وعند إدراكنا لهذه المسؤولية السياسية ، دعونا نتغلب على التفاهات السياسية الضيقة . وعند فهمنا للمسؤولية الاجتماعية ، دعونا نقول (لا) للاهتمامات والمصالح الفردية البحتة . وعند فهمنا للواجبات التربوية ، دعونا نترك الأوهام التربوية . وعند المطالبة بالأخلاق ، دعونا نهرب من قبح التزمت والتضييق ، ودعونا نوجه أنفسنا لخلق جمال النقاء والصفاء . وأخيراً عند قبول المسؤولية العلمية ، دعونا نرفض التشوهات " العلمية " أو العلم المزيف .

ومن المحتمل أن يرى بعض القراء المتعيين وجوديًا والمخدرين تاريخيًا أنني أحلم كثيراً .. نعم إنني أحلم لأنني كائن تاريخي ، وإذا لم أحلم لن يكون لى وجود . بيد أنني لا أحلم بشكل كبير مما يجعلني أفكر فى أن ما نلحمه من أحلام قليل جداً بالنسبة لدورها ، الذى لا غناء عنه فى حياتنا وفى العمل على تعزيز ديمقراطيتنا . وتحقيق هذه الأحلام يتطلب النظام فى ممارسة عملية القراءة ، والكتابة ، والتدريس ، والتعلم ، من خلال عملية ممتعة مع أنها صعبة ، وكذلك من خلال نظام منضبط فى مناقشة الموضوعات العامة ، ونظام للاحترام المتبادل فيما بيننا .

ولكى أقول كمدرس " لا يهمنى أى فرقة أعمل بها فإن ما سأعمله أو لا أعمله لن يكون ذا أهمية فى مواجهة حقيقة ، إن الأقوياء سوف يعملون بصرف النظر عن عملى لتحقيق مصالحهم بما قد يتعارض مع المصالح القومية . وهو موقف غير جدير بالمدرس ، فهو ببساطة تعبير عن استهتار ذاتى ، ومحاولة للتبرير عن التقاعس . والأسوأ من هذا أن يصبح هذا التكيف قوة مبررة لعدم الشعور بمزید من الخزى . وسواء كان موقف المعلم موقفاً جامداً ناجماً عن دوافع استسلام قدرى أو دوافع أخرى ، فسوف يكون له تأثير قوى فى استمرار المظالم والكوارث التى تحقيق بنا ، وفى صالح تأجيل الحلول العاجلة .

لا يوجد أحد يستقبل الديمقراطية كمنحة ، بل إن الإنسان يقاتل من أجلها . والواقع أن العناصر التى تحول دون أن نكون ديمقراطيين لا تتحطم بالصبر الجميل ، بل بحركة الناس حين يتولون التعبئة والتنظيم والنقد الواعى ، وتشارك فى ذلك الأغلبية من الطبقات الدنيا التى لا تقتصر على شعورها بأنها مستغلة منذ وجود البرازيل كدولة ، ولكنها أيضاً بالاشتراك فى معرفة دواعى هذا الاستغلال ، والحساسية لما وصلوا إليه من حال .

وعندما أتحدث عن حساسية تلك الظاهرة والفهم الناقد لها ، فإننى لا أقترح أى تقسيم بين الحساسية والعواطف من ناحية ، والنشاط المعرفى من الناحية الأخرى . لقد سبق أن قلت إننى أعرف من خلال كيانى كله : شعوراً وعواطف ، وعقلاً ناقداً .

دعنا نبين أن الناس وهم يقومون بالتعبئة ، والتنظيم ، والمعرفة الناقدة ، والتعميق والفرز للديمقراطية ضد أى مغامرة سلطوية ، هم أيضاً أناس يصنعون النظام ويلتزمون به خلال ذلك ؛ إذ إن النظام ضرورة من الضرورات التى دونها لا تنشط حركة ديمقراطية . وفى البرازيل نحن دائماً نخلط بين غياب النظام بسبب إنكار الحرية ، وغياب النظام لغياب السلطة .. نحن نفتقر إلى النظام فى المنزل والمدرسة والشوارع والمرور . إن هناك عدداً مذهباً يفقده المجتمع ممن يموتون خلال عطلة الأسبوع بسبب غياب النظام فى حوادث المرور وغيرها من الكوارث المفجعة .

وهناك ظاهرة أخرى للافتقار الواضح لاحترام الآخرين وهى ذات وجه كره لعدم التزامنا بالنظام ، وتلك هى ظاهرة الفوضى وعدم احترام القانون ، وافتقار الحساسية فى هذا المجتمع لما يجرى من حوادث القتل التى تمر دون عقاب .

وفى النظام الرأسمالى ، تحتاج الطبقات الدنيا التى يستغلها ويسيطر عليها النظام - والذى تسعى فيه إلى تشكيل عملية النظام المعرفى الذكى - تحتاج إلى خلق نظام اجتماعى ، مدنى ، سياسى باعتباره نظاماً ضرورياً وهاماً للديمقراطية التى تتجاوز حدود البورجوازية المجردة ، والديمقراطية الليبرالية . وجميعها يسعى فى النهاية للتغلب على الظلم وعدم الإحساس بالمسؤولية لدى النظام الرأسمالى .

هذه هى إحدى المهام التى يجب أن نتصدى لها بأنفسنا أكثر ، دون الاقتصار على من مجرد الاهتمام بمهمة التدريس القائمة على وسيلة خاطئة من خلال نقل المعلومات إلى المتعلمين . ومع ذلك فعلى المعلم أن يعلم ويعلم ، ومن الضرورى أن يقوم بذلك . لكن عملية التدريس والتعلم ليست مجرد نقل للمعرفة ، وإنما تكتمل بحق حين يسبقها أو يصاحبها معرفة بمضمون موضوع التعلم ، والذى سوف يؤدى إلى أن يصبح المتعلمون منتجين للمعرفة التى تعلموها .

إنه بالقدر الذى يصبح المتعلمون ذوات مفكرة كشأن مدرسيهم ، فمن الممكن ساعته أن يصبح بإمكان المتعلمين أن يغدوا ذوات منتجة لمعانى المعرفة المتصلة بالموضوع .

وبهذه الحركة الجدلية يصبح التعليم والتعلم عملية معرفة وإعادة معرفة. ويعرف المتعلمون تدريجيًا ما لم يعرفوه ، ويجدد المدرسون معرفة ما كانوا يعرفونها من قبل . وهذه العملية لا تقتصر فحسب على فهم عملية التدريس والتعلم بل تتضمن معاشتها، وكما تتطلب ممارستها عملية النظام الذي أشرت إليه ، نظاماً لا يمكن أن يفصل نفسه عن النظام السياسى ، مما يعتبر ضرورياً لتكوين المواطنة .

حقاً إن المواطنة فوق ذلك فى مجتمع كمجتمعنا تسوده تقاليد التسلط العرقى والجنسى والتمايز بناء على القاعدة الطبقية ، إنما تمثل ابتكاراً من النوع الذى يطلق عليه الإنتاج السياسى . وبهذا المعنى فإن أى شخص يعاني من التمييز العنصرى لا يتمتع بالممارسة الكاملة للمواطنة باعتبارها حقاً للسلام معترفاً به . وعلى النقيض من ذلك ، فإن من حق المواطن أنه يمكن التواصل به والتفاعل معه مما يؤدى إلى النمو فى الديمقراطية الحقيقية . كذلك تتضمن المواطنة التمتع بالحرية ، حرية العمل ، والغذاء ، واللباس ، ولبس الأحذية ، والنوم فى منزل ، ورعاية النفس ، والأسرة ، والحب ، والغضب ، والبكاء ، والاحتجاج ، وإعانة الغير ، والحركة ، والاعتقاد فى أى دين من الأديان ، والانضمام لهذا الحزب أو ذاك ، يعلم نفسه وأسرته ، ويقوم بالسباحة فى أى محيط يختاره من محيطات بلده .

والمواطنة لا تكتسب بالصدفة ؛ لأنها تكوين متواصل ليس له نهاية ، يتطلب أن يكافح من أجلها ، كما يتطلب الالتزام والوضوح السياسى ، والاتساق فى اتخاذ القرار. لذلك .. فإن التعليم الديمقراطى لا يمكن أن يتحقق منفصلاً عن تعليم المواطنة ومن أجل المواطنة . وكلما ازداد احترامنا للطلاب دون اعتبار لسماتهم فى اللون أو الجنس أو الطبقة تدعمت الشهادة التى نقدمها لمعانى الاحترام فى حياتنا ، وفى المدرسة وفى علاقتنا بزملائنا ، ومع حراس العمارات ، ومع الطباخين ، ورجال الحراسة ، ومع أمهات الطلاب وآبائهم . كذلك كلما قللنا المسافة بين ما نقول وما نفعل سوف نسهم فى دعم الخبرات الديمقراطية ، وسوف نطرح التحدى لأنفسنا فى عمل المزيد

والكفاح من أجل المواطنة واتساع آفاقها . وسوف نجعل من أنفسنا نظاماً فكرياً لا يمكن الاستغناء عنه ، والذي دونه قد نعرقل تدريينا ، وهو ما لا يقل أهمية عن نظام سياسي نعتبره ضرورياً من أجل التكوين المبدع للمواطنة .